

إعجاز القرآن الكريم عند الإمام القرطبي من خلال مقبلة تفسيره

أ. د. مصطفى شريقن
جامعة الأغواط

أ. عقبة بن نافع ناصري
جامعة الأغواط

الملخص:

يعدّ تفسير الإمام القرطبي المسمى الجامع لأحكام القرآن؛ من أهم التفاسير وأجلّها، حيث أنّ القرطبي (رحمه الله) جعله تفسيراً فقهياً، ورغم ذلك إلا أنّه يُعتبر من العلماء الذين اهتموا ببلاغة القرآن ولغته وأساليبه الفريدة فبالإضافة إلى تعرّضه لبيان معاني ألفاظ القرآن وتفسيرها؛ فإنّه قد اهتم بعلوم القرآن كذلك؛ وبإعجاز القرآن الكريم وإبراز وجوهه، وينقل عن سابقيه، ويناقشهم ويحلل آراءهم ويعقّب عليهم، ويردّ على المخالفين منهم، حيث أنّه يُعدّ من العلماء الذين اشتهروا بكشف أسرار التعبير القرآني، وإثبات صحّة نظمه وتأليفه الربّاني؛ لنصل في الأخير إلى أنّ تفسير القرطبي أثّر في المكتبة الإسلامية والدراسات اللغوية والقرآنية؛ والتي تهدف في الأساس إلى خدمة القرآن العظيم واللغة التي نزل بها.

الكلمات المفتاحية: الإمام القرطبي - إعجاز القرآن - شروط المعجزة - وجوه إعجاز القرآن.

Abstract:

Al-Qurtubi (may God have mercy on him) made it a jurisprudential interpretation. However, he is considered one of the scholars who are interested in the eloquence of the Qur'an, its language and its unique methods. In addition to being exposed to the meaning and interpretation of the words of the Qur'an, He is considered one of the scholars who are famous for revealing the secrets of the Qur'anic expression, and to prove the correctness of his systems and his divine writings; to pray in the latter. He is considered to be one of the most famous scholars of the Quran. That the interpretation of al-Qurtubi enriched the Islamic library and linguistic and Quranic studies; which aims primarily at the service of the great Koran and the language that came down.

key words: Imam al-Qurtubi – qua ran miracle - Miracle Conditions - The faces of the miracle of the Koran.

مقدمة:

لقد شغلت قضية الإعجاز القرآني حيّزا كبيرا من الدراسات الإسلامية واللغوية، وذلك على مرّ الدهور والعصور، ولا زالت تشغله في وقتنا الحاضر؛ إذ ألّفت حولها الكتب وتزاحمت البحوث

والأقوال، وأدلى كل واحد من العلماء بدَلوه وأشرك القضية بسهمه، فكان لكل منهم تحليله وتدليله وتعليقه، والمتأمل لهذه الإسهامات والمشاركات المتعاقبة والمتلاحقة يجد أنها خدمت النص القرآني ولغته الخالدة بخلوده.

إنَّ معجزة القرآن الكريم أكبرُ من أن تُدرك في عصر واحد أو تعرف، إذ أنَّ لها مجالات عدة، من ذلك: الإعجاز في لغته، وفي بلاغته وفصاحته، وأسلوب نظمته، وفي قصص السابقين، وفي إخباره بالغيب، وذكر التشريعات وغيرها.. ومنه يدرك القارئ أنَّ لإعجاز القرآن الكريم وجوها كثيرة، ومناحي عديدة.

وإننا لنؤكد دومًا إنَّ للإعجاز القرآني في كل عصر وجها ينكشف للناس، يكون دليلًا جديدًا يضاف إلى دلائل صدق معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا من أسرار القرآن الكريم حيث أنه يتَّسم بالاستمرار والخلود والبقاء، فكلما زدته فكريا زادك عطاء، وكلما زدته إعمالًا وتدبرًا؛ زادك أسرارًا وأنوارًا.

والمتأمل في علوم القرآن الكريم يجد موضوع إعجاز القرآن الكريم أعلى هذه العلوم وأشرفها وأعظمها قدرًا حيث أنَّه يكشف عن أسرار التعبير القرآني، وأوجه عظمته، لذا كان حريًا على الأمة أن تبذل فيه أعمارها وتقضي الساعات الطَّوال ابتغاء استخراج كنوزه والتنقيب عن أسرارها والتقاط درره، فذلك موصل لتدبر القرآن وفهمه على الوجه الذي شرع وأمر به المكلف..

المطلب الأول: تعريف إعجاز القرآن لغة واصطلاحًا:

لم يتعرَّض الإمام القرطبي ⁽¹⁾ (رحمه الله) في تفسيره، لمفهوم الإعجاز؛ ولهذا آثرنا أن نقدم في بداية هذا البحث تعريفًا لمصطلح الإعجاز في اللغة والاصطلاح. فهو أمر ضروري قبل الشروع في المقصود، وذكر شروط الإعجاز ووجوهه.

الفرع الأول: تعريف إعجاز القرآن في اللغة:

الإعجاز في اللغة هو: من العجز: أي الضعف وعدمُ القدرة، قال ابن فارس: " العين والجيم والزاء أصلان صحيحان يدل أحدهما على الضَّعْف والآخرُ على مؤخَّر الشيء يَعْجِزُ عَجْزًا فهو عاجز أي: ضعيف... ويقال: أعجزني فلان إذا عجزتُ عن طلبه وإدراكه " ⁽²⁾. والعجزُ عند ابن منظور: " بمعنى الضعف وعدم القدرة ومنها المعجزة وهي مفعلة من العجز " ⁽³⁾.

ومن خلال التتبع للمادة في معاجم اللغة نخلص إلى أمور: (4)

- الإعجاز فوت وسبق إلى درجة تعذر الإدراك.
 - لا يوجد إعجاز إلا إذا وُجدت مسابقة، وسابق ومسبوق، ومتقدم ومتأخر.
 - لا توجد مسابقة إلا إذا وُجد تحديّ، ومجال للمسابقة، وموضوع لها، ومتسابقون.
 - حيث كان إعجاز فلا أمل للمسبوق المتأخر في إدراك السابق واللاحق به.
 - مدار الإعجاز على أمرين: قدرة على السبق، وقصور عن اللاحق.
- وأما القرآن، فهو في اللغة: مصدر قرأ بمعنى تلا، أو بمعنى جمع، فعلى المعنى الأول يكون مصدرًا بمعنى اسم المفعول؛ أي: المتلو، وعلى المعنى الثاني يكون مصدرًا بمعنى اسم الفاعل؛ أي: بمعنى جامع لجمعه الأخبار والأحكام، ويمكن أن يكون بمعنى اسم المفعول؛ أي: مجموع لأنه جُمع في المصاحف والصدور (5)

وفي لسان العرب: (ومعنى القرآن معنى الجمع، وسُيِّ قُرْآنًا لأنه يجمع السُّور فيضُمُّها) (6).

وقيل: إنه اسم علم غير منقول، وُضع أول ما وُضع اسمًا لكتاب الله تعالى (7)

الفرع الثاني: تعريف إعجاز القرآن في الاصطلاح:

لم يكن هذا المصطلح معروفًا في عهد النبوة والصحابة والتابعين، إنما عرف فيما بعد، دليل ذلك كتاب الله تبارك وتعالى، فالكلمة التي كانت تقوم مقام المعجزة هي الآية، وهذا ما ورد كثيرًا في كتاب الله تبارك وتعالى .

قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ (8)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاَسْأَلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (101)﴾ (9)، وقال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (50) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (51)﴾ (10)

فالآية والآيات هي التي عبّر عنها بالمعجزات فيما بعد، ثم يتساءل فيقول: ولكن متى ظهر هذا المصطلح؟

يغلب على ظننا أنّ مصطلح الإعجاز والمعجزة لم يظهر قبل القرن الثاني الهجري، ولقد نشأ في بيئة المتكلمين الذين كانوا يدافعون عن القرآن الكريم، ويردون أباطيل الملاحدة والزنادقة وأهل الزيغ، والأهواء، وهو مصطلح له ما يؤيده من اللغة⁽¹¹⁾

ولم يلتفت جمهور العلماء إلى البحث عن وجه الإعجاز والمعجزة القرآنية - بل لم يبرز مصطلح إعجاز القرآن على الساحة - إلا بعد أن نُقل عن واصل بن عطاء المتوفى سنة 131 هـ شيخ المعتزلة في البصرة قول غريب وهو: أنّ إعجاز القرآن ليس بشيء ذاتي فيه، وإنما هو بصرف الله تفكير الناس عن معارضته " (12)

لم ترد كلمة إعجاز ولا كلمة معجزة في القرآن الكريم كما أنّ الكلمتين لم تذكران في حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولا في كلام الصحابة ولا التابعين، وأول استخدام لهاتين الكلمتين، كان بعد منتصف القرن الثالث الهجري، أو مطلع القرن الرابع. ولقد ورد في القرآن كلمات متقاربة مع الإعجاز والمعجزة، أي: قريبة في معناها من معنى المعجزة. وهي: الآية، والبينة، والبرهان، والسلطان، والبصيرة⁽¹³⁾

أمّا إعجاز القرآن (مركب إضافي)، فمعناه بحسب أصل اللغة: إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحدّاهم به. فهو من إضافة المصدر لفاعله، والمفعول وما تعلّق بالفعل محذوف للعلم به. والتقدير: إعجاز القرآن خلق الله عن الإتيان بما تحدّاهم به⁽¹⁴⁾.

فالإعجاز اصطلاحاً: هو إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحدّاهم به⁽¹⁵⁾ وعرفه مصطفى ديب البغا بأنه: " إظهار صدق النبي صلى الله عليه وسلم في دعوى الرسالة بإظهار عجز العرب عن معارضته في معجزته الخالدة، وهي القرآن، وعجز الأجيال بعدهم عن ذلك⁽¹⁶⁾ .

ويمكن أن يقال أنّ إعجاز القرآن: يقصد به عجز الناس أن يأتوا بمثل القرآن. مع أنهم أهل فصاحة وبيان وقدرة. لكنهم عجزوا رغم أن الله تحدّاهم بأقصر سورة من القرآن.

يقول أحد الباحثين: " وأمّا إعجاز القرآن فقد سلخوا في إثباته طريقتين: أولاهما عقلية، تقوم على الاستدلال بأحوال العرب الذين نزل فهم القرآن وتحّداهم فعجزوا عن معارضته، ولو بأقصر سورة من مثله، مع شدّة حاجتهم وتوفر دواعيمهم. وثانيتهما بلاغية، تقوم على دراسة وجوه بلاغة القرآن، وبيان ما فيها من دلالة على أنّ القرآن فوق كلام البشر " (17)

المطلب الثاني: شروط المعجزة:

الفرع الأول: مفهوم المعجزة لغة واصطلاحاً:

أ/ المعجزة في اللغة:

أغفل الإمام القرطبي مفهوم المعجزة في اللغة، لذا سنتعرض له أولاً ثم ننتقل إلى التعريف الاصطلاحي يقول الراغب الأصفهاني: عجز: عجز الإنسان مُؤَخَّرَه، وبه شُبّه مؤخَّر غيره، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازٌ نَّخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾⁽¹⁸⁾ والعجز أصله التأخر عن الشيء وحصوله عند عجز الأمر، أي مؤخره، كما ذكر في الدبر، وصار في التعارف اسماً للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد القدرة، قال تعالى: ﴿أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ﴾⁽¹⁹⁾ وأعجزت فلاناً وعجّزته وعاجزته جعلته عاجزاً.. والعجوز سميت لعجزها في كثير من الأمور، قال تعالى: ﴿أَلَدُّ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾⁽²⁰⁾،⁽²¹⁾

عندنا فعلاً: أحدهما ثلاثي، والآخر رباعي.

الثلاثي: عجز. فهو عاجز. وهذا للضعيف المهزوم العاجز عن التحدي والمواجهة. ومصدر الفعل هو العجز. أما الرباعي فهو: أعجز. يعجز. فهو معجز. وهذا للمنتصر القوي الذي غلب خصمه وأعجزه. ومصدر الفعل هو الإعجاز.

المعجز إذن: هو اسم الفاعل من الفعل الرباعي: أعجز.

والمعجزة: هي اسم الفاعل المؤنث من ذلك الفعل. فالتاء فيها هي تاء النّقل. وليست هاء المبالغة كما قال بعض العلماء.⁽²²⁾

ب: المعجزة في الاصطلاح:

ابتدأ الإمام القرطبي كلامه في حديثه عن الإعجاز بالتعريف على لفظ المعجزة، فقال: .

المعجزة واحد معجزات الأنبياء الدالة على صدقهم، صلوات الله عليهم، وسُميت مُعْجَزَةً لأنَّ البشرَ يَعْجِزُونَ عن الإتيان بمثْلِها. بعد تحدث إمامنا المفسر عن المعجزة وعرفها، نجده ينتقل مباشرة إلى شروط المعجزة مع بيان كل شرط، وذكر ما يتعلق به من كلام. .

الفرع الثاني: شروط المعجزة:

قال الإمام القرطبي، بعد أن تعرّض لمفهوم المعجزة: وشرائطها - أي المعجزة - خمسة، فإن اختلف منها شرط، لا تكون معجزة: .

فالشروط الأولى من شروطها: أن تكون مما لا يقدر عليها إلا الله سبحانه. وإنما وجب حصول هذا الشرط للمعجزة، لأنه لو أتى آتٍ في زمانٍ يصح فيه مجيء الرُّسل، وأدعى الرسالة، وجعل معجزته أن يتحرَّك ويسكن، ويقوم ويقعد، لم يكن هذا الذي ادَّعاه معجزةً له، ولا دالاً على صدقه، لقدرة الخلق على مثله، وإنما يجب أن تكون المعجزات كفلق البحر، وانشقاق القمر، وما شاكلها مما لا يقدر عليها البشر (23)

والشرط الثاني: هو أن تخرق العادة. وإنما وجب اشتراط ذلك. لأنه لو قال المدَّعي للرسالة: آتي مجيء الليل بعد النهار، وطلوع الشمس من مشرقها، لم يكن فيما ادَّعاه معجزة، لأن هذه الأفعال، وإن كان لا يقدر عليها إلا الله، فلم تُفعل من أجله، وقد كان قبل دَعواه على ما هي عليه في حين دَعواه، ودَعواه في دلائلها على نبوته، كدعوى غيره، فبان أنه لا وجه له لاستشهادها بها يدل على صدقه. والذي يستشهد به الرسول عليه السلام له وجه يدل على صدقه، وذلك أن يقول: الدليل على صدقي أن يخرق الله تعالى العادة من أجل دعواي عليه الرسالة، فيقلب هذه العصا ثعباناً، ويشق الحجر، ويخرج من وسطه ناقة، أو ينبع الماء من بين أصابعي، كما ينبع من العين، أو ما سوى ذلك من الآيات الخارقة للعادة، التي ينفرد بها جبار الأرض والسموات، فتقوم له هذه العلامات مقام قول الرب سبحانه - لو أسمعنا كلامه العزيز وقال -: صدق، أنا بعثته.

ومثال هذه المسألة - ولله ولسوله المثل الأعلى - ما لو كانت جماعة بحضرة ملك من ملوك الأرض، وهم بمرأى أو مسمع منه، فقال أحد رجاله والملك يسمعه: الملك - أي الجماعة - يأمركم بكذا وكذا، ودليل ذلك أن الملك يُصدِّقني بفعله من أفعاله، وهو أن يخرج خاتمته من يده قاصداً بذلك تصديقي، فإذا سمع الملك كلامه لهم، ودعواه فيهم، ثم عمل ما استشهد به على صدقه، قام ذلك مقام قوله - لو قال -: صدق فيما ادَّعاه عليّ. فكَذلك إذا عمل الله عملاً لا يقدر عليه إلا هو، وخرق به العادة على يدي الرسول، قام ذلك الفعل مقام كلامه تعالى لو أسمعناه وقال: صدق عبدي في دعوى الرسالة، وأنا أرسلته إليكم، فاسمعوا له وأطيعوا (24).

بهذا القيد الذي وضعه الإمام القرطبي (رحمه الله) يخرج كل ما يثير الدهشة وكل ما يدعو إلى الحيرة والاستغراب سواء تعلّق الأمر بالمشاهد الكونية أو الظواهر الطبيعية القائمة على سنن ونواميس، وحتى الابتكارات العلمية وما شاكل ذلك.

والشرط الثالث: هو أن يستشهد بها مدَّعي الرسالة على الله عز وجل، فيقول: آتي أن يقلب الله سبحانه هذا الماء زبناً، أو يحرك الأرض عند قولي لها: تزلزلي، فإذا فعل الله سبحانه ذلك، حصل المتحدّى به (25).

وكمثال على ذلك ما كان لموسى عليه السلام حينما أرسله تعالى إلى فرعون، فأخبرهم أن آية صدقه ودلالة على نبوته؛ أن يلقي عصاه فإذا هي حية تسعى - بإذن الله -، وآية أخرى أن يدخل يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء، كل هذا من أجل حصول المقصود وهو الإيمان بالرسول وتصديق رسالته.

والشرط الرابع: هو أن تقع على وفق دعوى المتحدّي بها، المستشهد بكونها معجزةً له. وإنما وجب اشتراطُ هذا الشرط؛ لأنه لو قال المدّعي للرسالة: آيةُ نبوّتي ودليل حجّتي أن تنطقَ يدي، أو هذه الدابةُ، فنطقتَ يده، أو الدابةُ، بأن قالت: كذب، وليس هو بنبي، فإنّ هذا الكلام الذي خلقه الله تعالى دالٌّ على كذب ذلك المدّعي للرسالة؛ لأن ما فعله الله لم يقع على وفق دعواه. وكذلك ما يُروى أنّ مسيلمةَ الكذاب - لعنه الله - تقلّ في بئر ليكثر ماؤها، فغارت البئر، وذهب ما كان فيها من الماء⁽²⁶⁾، فما فعل الله سبحانه من هذا، كان من الآيات المكدّبة لمن ظهرت على يديه، لأنها وقعت على خلاف ما أراد المتنبّي الكذاب.

وبهذا التقييد يخرج ما قد يظهر للنبي أو الرسول قبل بعثته ونبوته، فإنّها تسمّى إرهافات ومقدّمات من ذلك تكلم عيسى (عليه السلام) في المهد، وإنّ ظهرت على غير أنبياء، كالصالحين من عباد الله المتّقين فتسمّى كرامة، وإنّ كانت ظهرت على يد بشر عاديّين فتكون عوناً وتوفيقاً من الله، وقد تكون استدراجاً وفتنة كما يقع للمسيح الدجال، وقد تكون تكذيباً وفضحاً لصاحبها كما حدث لمسيلمة الكذاب (مدّعي الرسالة).

والشرط الخامس من شروط المعجزة: ألا يأتي أحدٌ بمثل ما أتى به المتحدّي على وجه المعارضة، فإن تمّ الأمر المتحدّي به، المستشهد به على النبوة، على هذا الشرط، مع الشروط المتقدمة، فهي معجزةٌ دالةٌ على نبوة من ظهرت على يده، فإن أقام الله تعالى من يُعارضه حتى يأتي بمثل ما أتى به، ويعملَ مثل ما عمل، بطلَ كونه نبيّاً، وخرج ما ظهر على يديه عن كونه مُعجِزاً، ولم يدلّ على صدقه، ولهذا قال المولى سبحانه: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾⁽²⁷⁾، وقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ﴾⁽²⁸⁾ كأنه يقول: إن ادّعيتم أن هذا القرآن من نظم محمد صلى الله عليه وسلم وعمله، فاعملوا عشر سورٍ من جنس نظمه، فإذا عجزتم بأسركم عن ذلك، فاعلموا أنه ليس من نظمه، ولا من عمله.

بعد أن أكمل الإمام القرطبي الحديث عن المعجزة وشروطها؛ يورد تنبيها مهماً على مسألة تتعلّق بكون المعجزات لا تكون إلا للصادقين؛ حيث يقول: "لا يقال: إن المعجزات المقيّدة بالشروط

الخمسَةَ لا تظهر إلا على أيدي الصادقين، فهذا المسيح الدَّجَال - فيما رُوِيَتْ عن نبيكم صلى الله عليه وسلم - يظهر على يديه من الآيات العظام، والأمور الجسام، ما هو معروف مشهور.

فإنَّنا نقول: ذلك يدَّعي الرسالة، وهذا يدَّعي الرُّبُوبية، وبينهما من الفُرْقان ما بين البُصراء والعُميان، وقد قام الدليل العقليُّ على أنَّ بعثة بعض الخلق إلى بعض غير ممتنعة، ولا مستحيلة، فلم يَبْعُدْ أن يُقيم الله تعالى الأدلة على صدق مخلوق أتى عنه بالشرع والملة.

ودلَّت الأدلة العقلية أيضاً على أنَّ المسيح الدَّجَال فيه التَّصويرُ والتَّغْيِيرُ من حال إلى حال، وثبَّت أنَّ هذه الصفات لا تليقُ إلا بالمُحدثات، تعالى ربُّ البريات عن أن يُشَبِّهَ شيء ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾⁽²⁹⁾

وبعد أن أتمَّ الإمام القرطبي اعتراضه وتنبيهه، نجده يقسم المعجزة إلى قسمين: فيقول: إذا ثبتَ هذا فاعلم أن المعجزاتِ على ضَرِيَيْن:

الأول: ما اشتهر نقله وانقرضَ عصرُه بموت النبي صلى الله عليه وسلم..

والثاني: ما تواترت الأخبارُ بصحته وحصوله، واستفاضت بثبوته ووجوده، ووقع لسماعها العلمُ بذلك ضرورة..

ومن شرطه أن يكونَ الناقلون له خلقاً كثيراً وجماً غفيراً، وأن يكونوا عالمين بما نقلوه علماً ضرورياً وأن يستويَ في النقل أولُّهم وآخرُهم ووسطُهم في كثرة العدد، حتى يستحيل عليهم التواطؤُ على الكذب. وهذه صفةُ نقل القرآن، ونقلِ وجود النبي عليه الصلاة والسلام، لأنَّ الأمة رضي الله عنها لم تَزَلْ تنقل القرآن خلفاً عن سلفٍ والسلفُ عن سلفه، إلى أن يتَّصل ذلك بالنبي عليه السلام، المعلوم وجودُه بالضرورة، وصدِّقه بالأدلة المعجزات والرسول أخذه عن جبريل عليه السلام، عن ربه عزَّ وجلَّ، فنقل القرآن في الأصل رسولان معصومان من الزيادة والنقصان، ونقله إلينا بعدهم أهلُ التواتر، الذين لا يجوز عليهم الكذبُ فيما ينقلونه ويسمعونه، لكثرة العدد ولذلك وقع لنا العلمُ الضروريُّ بصدقهم فيما نقلوه، من وجود محمد صلى الله عليه وسلم، ومن ظهور القرآن على يديه، وتحديده به.

ونظيرُ ذلك من علم الدنيا: علمُ الإنسان بما نُقل إليه من وجوه البلدان، كالْبصرة والشام، والعراق، وخراسان والمدينة ومكة، وأشباه ذلك من الأخبار الكثيرة الظاهرة المتواترة. فالقرآنُ معجزة نبيِّنا صلى الله عليه وسلم الباقية بعده إلى يوم القيامة. ومعجزة كل نبيٍّ انقرضت

بانقراضه، أو دخلها التبديل والتغيير، كالتوراة والإنجيل..

المطلب الثالث: وجوه إعجاز القرآن الكريم:

ووجوه إعجاز القرآن العظيم عشرة⁽³⁰⁾ منها:

الوجه الأول: النَّظْمُ البديعُ المخالفُ لكل نَظْمٍ معهود في لسان العرب وفي غيرها؛ لأنَّ نَظْمَهُ ليس من نَظْمِ الشِّعْرِ في شيء، وكذلك قال ربُّ العزَّة الذي تَوَلَّى نظمته: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾⁽³¹⁾

وفي ((صحيح)) مسلم، أنَّ أنيساً أخا أبي ذرٍّ قال لأبي ذرٍّ: لقيت رجلاً بمكة على دينك، يزعم أنَّ الله أرسله قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون: شاعر، كاهن، ساحر. وكان أنيسٌ أحد الشعراء، قال أنيس: لقد سمعتُ قول الكهنَةِ، فما هو بقولهم، ولقد وضعتُ قوله على أقرء الشِّعر⁽³²⁾، فلم يَلْتِمِ على لسان أحد بعدي أنه شعر، والله إنه لصادقٌ، وإهم لكاذبون⁽³³⁾.

وكذلك أفرغته بنُ ربيعة أنه ليس بسحر ولا شعر، لما قرأ عليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ((حم)) فَصَلَّتْ⁽³⁴⁾، على ما يأتي بيانه هناك⁽³⁵⁾. فإذا اعترف عُتْبَةُ - على موضعه من اللسان، وموضعه من الفصاحة والبلاغة - بأنه ما سَمِعَ مثل القرآن قطُّ، كان في هذا القول مُقَرِّراً بإعجاز القرآن له، ولضربائه من المتحقِّقين بالفصاحة والقدرة على التكلُّم بجميع أجناس القول وأنواعه.

المخالفة التي عاناها القرطبي (رحمه الله) لا يقصد بها أنَّ القرآن العظيم غير عربي أو أنَّ نظمته ليس بعربي وإنما أراد بذلك الدلالة على التفاوت الكبير بين أسلوبه وبلاغته فقد بلغ مرتبة عالية جدا والتي تُعرف بالإعجاز رغم أنه أتى بشيء من جنس ما تتقنه العرب.

الوجه الثاني: الأسلوبُ المخالفُ لجميع أساليب العرب.

الوجه الثالث: الجَزَالَةُ التي لا تصحُّ من مخلوق بحال، وتأمل ذلك في سورة ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ إلى آخرها، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾⁽³⁶⁾ إلى آخر السورة. وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾⁽³⁷⁾ إلى آخر السورة.

قال ابن الحصار⁽³⁸⁾: فَمَنْ عَلِمَ أنَّ الله سبحانه وتعالى هو الحقُّ، عَلِمَ أنَّ مثلَ هذه الجَزَالَةِ لا تصحُّ في خطاب غيره، ولا يصحُّ من أعظم ملوك الدنيا أن يقول: ﴿كُنِ الْمَلِكُ الْيَوْمَ﴾⁽³⁹⁾، ولا أن يقول: ﴿وَيُرْسِلِ الصَّوَاعِقُ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾⁽⁴⁰⁾

قال ابن الحصار⁽⁴¹⁾: وهذه الثلاثة من النظم، والأسلوب، والجَزالة، لازمةٌ كلُّ سورة، بل هي لازمةٌ كلِّ آية. وبمجموع هذه الثلاثة يتميَّزُ مسموعُ كلِّ آية وكلِّ سورة عن سائر كلام البشر، وبها وقع التَّحْدِي والتَّعْجِيزُ. ومع هذا فكل سورة تنفردُ بهذه الثلاثة، من غير أن ينضاف إليها أمرٌ آخر من الوجوه العشرة. فهذه سورة الكوثر ثلاث آيات قصار، وهي أقصر سورة في القرآن، وقد تضمَّنت الإخبار عن مُعَيَّبَيْن: أحدهما: الإخبار عن الكوثر، وعِظْمه وسَعته، وكثرة أوانيه، وذلك يدلُّ على أنَّ المصْدِيقين به أكثر من أتباع سائر الرسل. والثاني: الإخبار عن الوليد بن المغيرة، وقد كان عند نزول الآية ذا مال وولد، على ما يقتضيه قول الحق: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13) وَمَهْدَتْ لَهُ تَمْهِيدًا (14)﴾⁽⁴²⁾ ثم أهلك الله سبحانه ماله وولده، وانقطع نسله.

الوجه الرابع: التصرُّف في لسان العرب على وجه لا يستقلُّ به عربيٌّ، حتى يقعَ منهم الاتفاق من جميعهم على إصابته في وضع كل كلمة وحرف موضعه.

وهو بهذا يُعَبِّر عن معنى الإحاطة التي ألمع إليها ابن عطية من قبل، حيث قال: "أما كتاب الله لَوْنَزَعَتْ منه لفظة، ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد"⁽⁴³⁾

الوجه الخامس: الإخبار عن الأمور التي تقدَّمت من أوَّل الدنيا إلى وقت نزوله من أمِّي ما كان يتلو من قبله من كتاب، ولا يخطُّه بيمينه، فأخبر بما كان من قصص الأنبياء مع أممها، والقرون الخالية في دهرها، وذكر ما سأله أهل الكتاب عنه، وتحدَّوه به، من قصة أهل الكهف، وشأن موسى والخضر عليهما السلام، وحال ذي القرنين، فجاءهم - وهو أمِّي من أمة أمِّيَّة، ليس لها بذلك علمٌ - بما عرَفوا من الكتب السالفة صِحَّتَه، فتحقَّقوا صدقَه.

ثم ينقل عن القاضي ابن الطَّيِّب⁽⁴⁴⁾ قوله: ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيلَ إليه إلا عن تعلُّم، وإذا كان معروفاً أنه لم يكن ملايساً لأهل الآثار، وحَمَلَة الأخبار، ولا متردداً إلى التعلُّم منهم، ولا كان ممن يقرأ، فيجوز أن يقعَ إليه كتابٌ، فيأخذ منه، غلِمَ أنه لا يصلُ إلى علم ذلك إلا بتأييدٍ من جهة الوحي.

الوجه السادس: الوفاء بالوعد المدرك بالجس في العيان، في كلِّ ما وعد الله سبحانه، وهو ينقسم إلى: أخباره المطلقة كوعده بنصر رسوله عليه السلام، وإخراج الذين أخرجوه من وطنه. وإلى وعد مقيَّد بشرط، كقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾⁽⁴⁵⁾، ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾⁽⁴⁶⁾، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾⁽⁴⁷⁾ و﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾⁽⁴⁸⁾، وشبه ذلك..

الوجه السابع: الإخبار عن المُغَيَّبَات في المستقبل التي لا يُطْلَعُ عليها إلا بالوحي. فَمِنْ ذلك: ما وعد الله نبيّه عليه السلام، أنه سيُظهِرُ دينه على الأديان بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾⁽⁴⁹⁾ الآية. ففعل ذلك وكان أبو بكر رضي الله عنه إذا أغزى جيوشه، عرّفهم ما وعدهم الله في إظهار دينه، ليثقوا بالنصر وليستيقنوا بالتّجّ، وكان عمرُ يفعل ذلك، فلم يزل الفتْح يتوالى شرقاً وغرباً، برّاً وبحراً. قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾⁽⁵⁰⁾ وقال: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾⁽⁵¹⁾ وقال: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾⁽⁵²⁾، وقال: ﴿الْم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾⁽⁵³⁾.

فهذه كلها أخبار عن القلوب التي لا يقفُ عليها إلا ربُّ العالمين، أو مَنْ أوقفه عليها ربُّ العالمين، فدلَّ على أَنَّ الله تعالى قد أوقف عليها رسوله، لتكون دلالة على صدقه.

الوجه الثامن: ما تضمّنه القرآن من العلم، الذي هو قِوامُ جميع الأنام في الحلال والحرام، وفي سائر الأحكام.

الوجه التاسع: الحكْمُ البالغة التي لم تجرِ العادة بأن تصدر في كثرتها وشرفها من آدمي.

الوجه العاشر: التناسب في جميع ما تضمّنه ظاهراً وباطناً من غير اختلاف. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانِ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾⁽⁵⁴⁾.⁽⁵⁵⁾ وعند تعرض الإمام القرطبي لتفسير هذه الآية من سورة النساء: قال: أراد اختلاف التناقض والتفاوت. وقيل المعنى: لو كان ما تُخبرون به من عند غير الله لاختلف. وقيل: إنه ليس من متكلم يتكلم كلاماً كثيراً إلا وُجد في كلامه اختلاف كثير، إمّا في الرصف واللفظ، وإما في جودة المعنى، وإما في التناقض وإما في الكذب، فأنزل الله عزّ وجلّ القرآن، وأمرهم بتدبره، لأنهم لا يجدون فيه اختلافاً في وصفٍ، ولا زُوالاً في معنى، ولا تناقضاً ولا مذنباً فيما يُخبرون به من الغيوب وما يُسرّون⁽⁵⁶⁾.

مما سبق من وجوه إعجاز القرآن الكريم التي عددها إمامنا القرطبي، يتبيّن أنه يرى أنّ وجوه الإعجاز بلاغية وغيبية وروحية وتشريعية، وأنّه يخالف ابن عطية في هذا المنحى الذي حدّد وجوه الإعجاز في نظم القرآن وصحّة معانيه، تتوالى فصاحة ألفاظه⁽⁵⁷⁾.

قلت: فهذه عشرة أوجه، ذكرها علماؤنا رحمة الله عليهم.

ووجهٌ حادي عشر قاله النُّظَّامُ⁽⁵⁸⁾ وبعضُ أهلِ القَدْرِيةِ، أنَّ وجهَ الإعجاز هو المنعُ من معارضته، والصَّرْفَةُ⁽⁵⁹⁾ عند التَّحْدِي بمثله. وأنَّ المنعَ والصَّرْفَةَ هو المعجزةُ دون ذات القرآن، وذلك أنَّ الله تعالى صَرَفَ هِمَمَهُم عن معارضته مع تحدِّيهم بأن يأتوا بسورة من مثله. وهذا فاسدٌ؛ لأنَّ إجماع الأمة قبل حدوثِ المخالف أنَّ القرآن هو المعجزةُ، فلو قلنا: إنَّ المنعَ والصَّرْفَةَ هو المعجزةُ، لخرج القرآن عن أن يكونَ مُعْجِزاً، وذلك خلافُ الإجماع. وإذا كان كذلك، عَلِمَ أن نفسَ القرآن هو المعجزةُ؛ لأنَّ فصاحته وبلاغته أمرٌ خارقٌ للعادة، إذ لم يوجد قطُّ كلامٌ على هذا الوجه، فلما لم يكن ذلك الكلامُ مألوفاً مُعتاداً منهم، دلَّ على أنَّ المنعَ والصَّرْفَةَ لم يكن معجزاً.

الصَّرْفَةُ⁽⁶⁰⁾ والمقصود منها؛

واختلف مَنْ قال بهذه الصَّرْفَةَ على قولين: أحدهما: أنهم صُرفوا عن القدرة عليه، ولو تعرَّضوا له، لَعَجَزُوا عنه. الثاني: أنهم صُرفوا عن التَّعَرُّضِ له، مع كونه في مقدورهم، ولو تعرَّضوا له لجاز أن يقدروا عليه.

الرد على القائِلين بالصَّرْفَةِ؛

بعد أن ذكر الإمام القرطبي رحمه الله أوجه إعجاز القرآن الكريم العشرة وعددها ورتبها، ذكر وجهها حادي عشر، نسبته إلى النُّظَّام وبعض أهل القدرية، وذكر الصَّرْفَةَ ومعانيها، نجده يرد عليهم ويبطل قولهم، وينقل إجماع الأمة على أنَّ القول بالصَّرْفَةِ باطل، ولم يكتفِ القرطبي بذلك، فنجد يستعين بكلام ابن عطية ليدحض هذا القول ويردَّ شُبهها فيقول: "وجهُ الإعجاز في القرآن، إنما هو بِنَظْمِهِ وَصِحَّةِ معانيه وتوالي فصاحةِ ألفاظه. ووجهُ إعجازه أنَّ الله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً، وأحاط بالكلام كُلِّهِ علماً، فعَلِمَ بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى، وتبيِّن المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أوَّل القرآن إلى آخره، والبشرُ معهم الجهلُ والنسيانُ والدُّهولُ ومعلومُ ضرورة أنَّ بشراً لم يكن محيطاً قطُّ، فهذا جاء نَظْمُ القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة.

ثم يردف الإمام القرطبي قائلاً: وبهذا النظر يبطل قولُ مَنْ قال: إنَّ العرب كان في قدرتها أن تأتي بمثل القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم، صُرفوا عن ذلك، وعجزوا عنه.

وبعدما ذكر الصَّرْفَةَ والأقوال التي فيها، وناقشها وحللها، ها هو الآن يرجِّح فيقول:

والصَّحِيحُ أنَّ الإتيان بمثل القرآن لم يَكُنْ قطُّ في قدرة أحد من المخلوقين..

ويظهر لك قصور البشر في أنَّ الفصحح منهم يصنعُ خطبة، أو قصيدة، يستفرغُ فيها جهده، ثم لا يزال يُنقِّحها حولاً كاملاً، ثم تُعطى لآخر بعده، فيأخذها بقريحة جامعة، فيُبَدِّل فيها ويُنقِّح، ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل. وكتاب الله تعالى لو نُزعت منه لفظة، ثم أُدير لسان العرب أن يوجد أحسن منها، لم يوجد.

المطلب الرابع: الفرق بين إعجاز القرآن الكريم والحديث الشريف:

الفرع الأول: بعض مظاهر الإعجاز في آي الذكر الحكيم:

يسوق لنا الإمام القرطبي أمثلة من القرآن الكريم للتدليل على فصاحة القرآن وبلاغته، وأنه يعلو كلَّ كلام بحيث أفحم البلغاء وأخرس مصاقيع الخطباء، وألقم بالحجر أفواه صناديد الفصحاء، فقد جاء القرآن بما لم تألفه العرب من قبل، وإن كان قد نزل بلغتهم، وفي ذلك يقول القرطبي: "ومن فصاحة القرآن أن الله تعالى جلَّ ذكره، ذكر في آية واحدة أمرين، ونهيين، وخبرين، وبشارتين، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾⁽⁶¹⁾ الآية.

وكذلك فاتحة سورة المائدة⁽⁶²⁾: أمر بالفداء، ونهى عن التَّكْثِ، وحلَّل تحليلاً عاماً، ثم استثنى استثناءً بعد استثناء ثم أخبر عن حكيمته وقدرته، وذلك مما لا يقدرُ عليه إلا الله سبحانه.

وأنبأ سبحانه عن الموت، وحسرة الفوت، والدار الآخرة وثوابها وعقابها، وفوز الفائزين، وتردي المجرمين، والتحذير من الاغترار بالدنيا، ووصفها بالقلّة بالإضافة إلى دار البقاء بقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾⁽⁶³⁾ الآية.

وأنبأ أيضاً عن قصص الأولين والآخرين، ومآل المترفين، وعواقب المهلكين، في شطر آية، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾⁽⁶⁴⁾.

وأنبأ جلَّ وعزَّ عن أمر السفينة وإجرائها، وإهلاك الكفرة، واستقرار السفينة واستوائها، وتوجيه أوامر التسخير على الأرض والسماء، بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾⁽⁶⁵⁾ إلى غير ذلك.

فلما عجزت قریش عن الإتيان بمثله، وقالت، إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَقَوَّلَهُ، أنزل الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (33) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿⁽⁶⁶⁾ ثم أنزل تعجيزاً أبلغ من ذلك، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾⁽⁶⁷⁾.

فلما عجزوا، حطَّهم عن هذا المقدار إلى مثل سورة من السُّور القصار، فقال جلَّ ذكره: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾⁽⁶⁸⁾

ويندرج رأي القرطبي عند التدرج في التحدي في سلك رأي الجمهور، فهو يذهب إلى أنه لما عجزت قريش عن الإتيان بمثله، وقالت، إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَقَوَّلَهُ⁽⁶⁹⁾، أنزل الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾⁽³³⁾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ⁽⁷⁰⁾، فهو يرى أن التحدي بدأ بالقرآن كله، ثم أنزل تعجيزاً أبلغ من ذلك، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ﴾⁽⁷¹⁾. فلما عجزوا حطَّهم عن هذا المقدار إلى مثل سورة من السور القصار، فقال جلَّ ذكره: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾⁽⁷²⁾ وعلى الرغم من هذا التدرج في التحدي من الأصعب إلى الأسهل فإنهم: "أفجموا عن الجواب، وتقطعت هم الأسباب، وعدلوا عن الحروب والعناد، وآثروا سبِّي الحريم والأولاد، ولو قدروا على المعارضة، لكان أهون كثيراً، وأبلغ في الحجة، وأشدَّ تأثيراً. هذا مع كونهم أرباب البلاغة واللحن، وعندهم تؤخذ الفصاحة واللسن"⁽⁷³⁾

الفرع الثاني: الفرق بين إعجاز القرآن الكريم والحديث الشريف:

بعد أن أتمَّ الإمام القرطبي (رحمه الله) كلامه عن أوجه إعجاز القرآن الكريم الصحيح منها والمرفوض، ها هو يعقد مقارنة بين القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف؛ ليؤكد أن أسلوب القرآن متفردٌ، لا يضاهيه أي أسلوب ولو كان حديث رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم، حيث يقول⁽⁷⁴⁾: "فبلاغة القرآن في أعلى طبقات الإحسان، وأرفع درجات الإيجاز والبيان، بل تجاوزت حدَّ الإحسان والإجادة، إلى حيز الإبراء والزيادة. هذا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مع ما أوتي من جوامع الكلم، واختصَّ به من غرائب الحكَم، إذا تأملت قوله صلى الله عليه وسلم في صفة الجنان، وإن كان في نهاية الإحسان، وجدته مُنحطاً عن رتبة القرآن، وذلك في قوله عليه الصلاة والسلام: ((فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))⁽⁷⁵⁾ فأين ذلك من قوله عز وجل: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَبِهُهُ الْأَنْفُسُ وتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾⁽⁷⁶⁾. وقوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾⁽⁷⁷⁾.

أجرى القرطبي مقارنة بين القرآن الكريم والحديث النبوي، ومثَّل لذلك بآية قرآنية مع جزء من نصِّ حديثي؛ ليصل إلى نتيجة مفادها أن بلاغة القرآن ليس لأحد مضارعها أو التأليف على منوالها؛ فيقول: "هذا أعدلُ وزناً، وأحسنُ تركيباً وأعذبُ لفظاً، وأقلُّ حروفاً، على أنه لا يعتبر إلا في مقدار سورة، أو أطول آية؛ لأن الكلام كلما طال، اتَّسع فيه مجال المتصرِّف، وضاق المقال على القاصر المتكَلِّف، وبهذا قامت الحجة على العرب، إذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة كما

قامت الحُجَّةُ في مُعجزة عيسى عليه السلام على الأطباء، ومُعجزة موسى عليه السلام على السَّحرة،⁽⁷⁸⁾

ثم يبيِّن أنَّ الله جعل معجزات الأنبياء من جنس ما برع فيه أقوامهم واشتهر في ذلك العصر وأتقنه أهله، فيقول: "فإنَّ الله سبحانه إنَّما جعل معجزات الأنبياء عليهم السلام بالوجه الشهير أبرع ما يكون في زمان النبي الذي أراد إظهاره، فكان السَّحَرُ في مدة موسى عليه السلام قد انتهى إلى غاية، وكذلك الطَّبُّ في زمن عيسى عليه السلام، والفصاحة في زمن محمد صلى الله عليه وسلم"⁽⁷⁹⁾

الخاتمة:

وفي ختام هذا البحث نعرِّضُ أهمَّ النتائج التي توصَّلتنا إليها:

- ✓ اشتمال تفسير الإمام القرطبي على علوم شتى ومواضيع عدَّة، وهذا ما جعل كتابه من أعظم كتب التفسير التي لا غنى لطالب العلم عنها.
- ✓ لم يكن الإمام القرطبي فقيها يتتبع الأحكام الشرعية من أدلِّها التفصيلية فحسب، بل كان فقيها مفسِّراً لغويّاً برع في فنون عدَّة؛ ممَّا يدل على سعة اطلاعه وتوقُّد ذهنيته.
- ✓ عناية الإمام القرطبي (رحمه الله) بإعجاز القرآن الكريم في تفسيره، وهذا ما جعله يذكره في مقدِّمته، للتنويه به والإشارة إليه بُغية شحذ الهمم، وتشويق القارئ لإكمال بقيَّة التفسير.
- ✓ حرصُ الإمام القرطبي على ذكر شروط المعجزة مع تقييدها وضبطها، والتأكيد على بلاغة القرآن وأسلوبه الفريد، ونظمه النَّضيد.
- ✓ بيان وجوه إعجاز القرآن الكريم، مشفوعة بأدلِّها، وذكر المرفوض منها حتَّى ومناقشتها من غير تعصّب أو تحامل، والرد عليها - بأسلوب علمي دقيق - دون التعرُّض لأصحابها.
- ✓ التَّمثيل لبعض مظاهر إعجاز القرآن الكريم، مع التفريق بين إعجاز القرآن وإعجاز الحديث، وسوق أمثلة عن ذلك؛ ليوكِّد أن أسلوب القرآن متفردٌ، لا يُضاهيه أي أسلوب، ولا يرقى إليه أي كلام (نثرا كان أو نظما).

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن العماد، شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط1، 1412هـ - 1991م.

- ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد: مسند الإمام أحمد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة.
- ابن فارس، أحمد: معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، 1399هـ.
- ابن منظور، محمد بن مكرم الأفيقي المصري: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1.
- ابن هشام: السيرة النبوية، : تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1955م.
- أبو زيد، أحمد: المنحى الاعتزالي في البيان وإعجاز القرآن، ط1، 1986، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب.
- أبو موسى، محمد: الإعجاز البياني، دار النشر مكتبة وهبة، مصر، 1418هـ - 1997م، ط2.
- البخاري، أبو عبد الله محمد: صحيح البخاري، بشرحه فتح الباري، طبع: المكتبة السلفية.
- البعداني، محمود بن علي بن أحمد، إعجاز القرآن الكريم عند الإمام ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير عرضاً ودراسة، كرسي القرآن الكريم وعلومه، جامعة الملك سعود، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر ط1، 1435هـ، الرياض.
- البغا، مصطفى ديب، ومستو، محي الدين: الواضح في علوم القرآن، دار الكلم الطيب، ط2، 1418هـ.
- بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، دار النشر: مكتبة المعارف، مصر، [د.ت]، ط2.
- البيهقي: دلائل النبوة، تحقيق: عبد المعطي قلعي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1405هـ.
- التركي، إبراهيم بن منصور: القول بالصرف في إعجاز القرآن الكريم عرض ودراسة، (مقال) بجامعة أم القرى لعلوم اللغات وأدائها، العدد الثاني، رجب 1430هـ، يولية 2009م.
- الخالدي، صلاح عبد الفتاح، البيان في إعجاز القرآن، ط1، 1437هـ، 2017، عمان، الأردن.
- الذهبي، شمس الدين: سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، 1987م.
- الزرقاني، محمد عبد العظيم: مناهل العرفان، دار الفكر، بيروت - لبنان، ط1، 1996هـ.
- زروق، الحسين: جهود الأمة في الإعجاز البياني للقرآن الكريم، دار السلام، مصر - الإسكندرية، ط1 1434هـ - 2013م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن الإتقان في علوم القرآن، دار النشر: دار الفكر- لبنان 1416هـ - 1996م ط1، تحقيق: سعيد المندوب.
- الشهري، عبد الرحمن بن معاضة: القول بالصرف في إعجاز القرآن عرض ونقد، دار ابن الجوزي، ط1 1432هـ، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- الطبري، أبو جعفر بن جرير: تاريخ الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، [د: ط]

- الطّوير، حسن مسعود: جهود علماء الغرب الإسلامي واتّجاهاتهم في دراسة الإعجاز القرآني (من القرن الخامس حتّى القرن الثامن الهجري)، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1430هـ - 2001م.
- عباس، فضل حسن أحمد، إعجاز القرآن المجيد دراسة في تاريخ الإعجاز وجهود العلماء الأقدمين والمحدثين، مراجعة وتعليق: د. سناء فضل عباس، دار النفائس، ط1، 1437هـ، 2016م، عمان، الأردن.
- عباس، فضل حسن وعباس، سناء فضل: إعجاز القرآن الكريم، دار النفائس، ط8، 1436هـ، 2015م عمان، الأردن.
- العثيمين، محمد بن صالح: أصول في التفسير، دار ابن الجوزي، ط1، 1423هـ.
- العوفي، حسن بن عواد بن بلال، إعجاز القرآن الكريم عند ابن القيم، كرسى القرآن الكريم وعلومه، جامعة الملك سعود، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر، ط1، 1426هـ، الرياض.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر: الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمّنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق: عبد المحسن التركي، الرسالة العالمية، ط1، 1433-2012.
- القطان، مناع: مباحث في علوم القرآن، مؤسسة الرسالة، 1416هـ - 1996م، ط29.
- مغلوف، محمد بن محمد بن عمر بن قاسم: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، خرج حواشيه وعلّق عليه: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1424هـ - 2003م.
- مسلم، مصطفى: مباحث في إعجاز القرآن، دار مسلم، الرياض، 1416هـ - 1996م، ط2.
- النووي، شرف الدين: شرح صحيح مسلم، نشر المكتبة المصرية.

الهوامش:

- (1) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فزّح، بفتح الفاء وسكون الراء الأنصاري القرطبي العالم الإمام الجليل الفاضل الفقيه المفسر المحصل المحدث المتفنن الكامل كان من عباد الله الصالحين والعلماء العاملين، أخذ عن أبي العباس القرطبي وغيره، له تفسير كبير في اثني عشر مجلداً وهو من أجلّ التّقاسير وأعظمها نفعا، توفي في شوال سنة 671هـ - 1272م. (شجرة النور الزكية، ج1، ص: 282)، صاحب كتاب (الجامع لأحكام القرآن) الحاكي مذاهب السلف كلّها، وما أكثر فوائده، وكان إماماً علماً، من الغوّاصين على معاني الحديث، حسن التّصنيف جيّد النّقل، توفي بمنى الخصيب من صعيد مصر، رحمه الله تعالى، (شذرات الذهب، ج7، ص: 585)
- (2) معجم مقاييس اللغة، ج4، ص: 238. مادة (ع ج ز). وعباس، فضل: إعجاز القرآن الكريم، ص: 11.
- (3) لسان العرب، ج9، ص: 58.
- (4) جهود الأئمة في الإعجاز البياني للقرآن الكريم، ص: 15.
- (5) أصول في التفسير، ص: 09.
- (6) لسان العرب، ج1، ص: 128. ومناهل العرفان، ج1، ص: 11.
- (7) تهذيب اللغة، ج9، ص: 271.

-
- (8) [الإسراء: 59]
- (9) [الإسراء: 101]
- (10) [العنكبوت: 50-51]
- (11) عباس، أحمد: إعجاز القرآن المجيد، ص: 17.
- (12) مسلم، مصطفى: مباحث في إعجاز القرآن، ص: 46.
- (13) البيان في إعجاز القرآن، ص: 30-32.
- (14) العوفي، حسن: إعجاز القرآن الكريم عند ابن القيم، ص: 31.
- (15) الزرقاني: مناهل العرفان، ج2، ص: 238.
- (16) الواضح في علوم القرآن، ص: 151. وإعجاز القرآن الكريم عند الإمام ابن عاشور، ص: 19
- (17) أبو زيد، أحمد: المنحى الاعتزالي في البيان وإعجاز القرآن، ص: 255.
- (18) [القمر: 20]
- (19) [المائدة: 31]
- (20) [هود: 72]
- (21) الواضح في علوم القرآن، ص: 151.. وإعجاز القرآن الكريم عند الإمام ابن عاشور، ص: 19
- (22) البيان في إعجاز القرآن، ص: 27 - 28.
- (23) الجامع لأحكام القرآن، ج01، ص: 112.
- (24) المصدر نفسه، ج01، ص: 113.
- (25) المصدر نفسه، ج01، ص: 114.
- (26) أورد الطبري هذه القصة في تاريخه 284/3-285 ضمن خبر مسيلمة.
- (27) [الطور: 34]
- (28) [هود: 13]
- (29) [الشورى: 11]
- (30) لكن بعض العلماء ذكروا أوجها أكثر مما ذكره القرطبي، فقد أوصلها السيوطي إلى: 35 وجها (معتزك الأقران)
- (31) [يس: 69]
- (32) أقرأ الشعر: أي أنواعه وأوزانه وطرائقه.
- (33) صحيح مسلم (2473)، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي ذر وعنده: فما يُلْتَم. وهو في مسند الإمام أحمد (21525).
- (34) أخرج قصة عتبة بن ربيعة ابنُ إسحاق فيما ذكر ابن هشام ج1، ص: 293 - 294 ومن طريقه البيهقي في دلائل النبوة ج، ص: 204.
- (35) الجامع لأحكام القرآن، ج18، ص: 390..
- (36) [الزمر: 67]
- (37) [إبراهيم: 42]
-

- (38) عبد الرحمن بن أحمد بن سعيد، أبو المطرّف، القرطبي المالكي، تفقه بأبي عمر الإشبيلي. [ت: 422هـ] سير أعلام النبلاء: ج17، ص: 473.
- (39) [غافر: 16]
- (40) [الرعد: 13]
- (41) عبد الرحمن بن أحمد بن سعيد، أبو المطرّف، القرطبي المالكي، تفقه بأبي عمر الإشبيلي. توفي سنة (422) سير أعلام النبلاء 473/17.
- (42) [المذثر: 11-14]
- (43) المحرر الوجيز: ج1، ص: 39.
- (44) إعجاز القرآن، ص: 51.
- (45) [التغابن: 11]
- (46) [الطلاق: 03]
- (47) [الأنفال: 65]
- (48) [الطلاق: 02]
- (49) [التوبة: 33]
- (50) [النور: 55]
- (51) [الفتح: 27]
- (52) [الأنفال: 07]
- (53) [الروم: 01-03]
- (54) [النساء: 82]
- (55) الجامع لأحكام القرآن، ج1، ص: 119.
- (56) المصدر نفسه، ج6، ص: 477.
- (57) المحرر الوجيز: ج1، ص: 38.
- (58) إبراهيم بن سيار، أبو إسحاق البصري، شيخ المعتزلة، تكلم في القدر، مات سنة بضع وعشرين ومئتين. سير أعلام النبلاء ج10، ص: 541.
- (59) الصّرفَةُ: تعددت أقوال العلماء والباحثين في تحديد مفهوم المصطلح، نظرا لعدم وجود ضابط له ونتيجة عدم وضوحه، ونكتفي هنا بأن نذكر التعريف الذي نراه مناسباً وهو: عدم معارضة القرآن الكريم، مع وجود الدواعي للمعارضة، وتوفر العلوم التي لا بد منها في المعارضة، وذلك لأن الله تعالى منع العرب عن المعارضة على جهة القسر والإلجاء. مناهل العرفان، ج2، ص: 301
- (60) للاستزادة ينظر: التركي، إبراهيم بن منصور، القول بالصرفة في إعجاز القرآن الكريم عرض ودراسة، (مقال)، ص: 156-160، والشهري، عبد الرحمن بن معاضة: القول بالصرفة في إعجاز القرآن عرض ونقد، ص: 13-26.
- (61) [القصص: 07]
- (62) يقصد قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُبَيِّنُ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: 01]

- (63) [آل عمران: 185]
(64) [العنكبوت: 40]
(65) [هود: 41-44]
(66) [الطور: 33-34]
(67) [هود: 13]
(68) [البقرة: 23]
(69) الطوير، حسن: جهود علماء الغرب الإسلامي واتجاهاتهم في دراسة الإعجاز القرآني، ص: 329.
(70) [الطور: 33-34]
(71) [هود: 13]
(72) [البقرة: 23]
(73) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ج1، ص: 121.
(74) المصدر نفسه، ج1، ص: 122.
(75) أخرجه أحمد (8134)، والبخاري (3244)، ومسلم (2824) من حديث أبي هريرة.
(76) [الزخرف: 71]
(77) [السجدة: 17]
(78) الجامع لأحكام القرآن: ج1، ص: 122.
(79) المصدر نفسه، ج1، ص: 122.